العبقرية والفنون الجميلة

الموسيقى والتصوير

١

يمتاز المتفنن العبقري بصحة الحكم وحسن الاختيار. فانهُ يوحى اليهِ الطيب والوسط والرديء. فان هو اخرجها للناس جميعاً فما هو إلاَّ مرتجل وميزتهُ على من هم دونهُ أن القوة الخالقة تجود عليهِ بالطيب ولا تجود بهِ عليهم. فاذا هو فحص ما يُلهَم ومحصهُ ووزنهُ واختار افضلهُ واخرج للناس احسنهُ فقد خرج بذلك عن المجموع وظهر واستحق صفة العبقري. ولا خوف عليهِ ان يخطىء النظرَ او يَضِلَّ في الحكم فان صحة النظر والهداية في الحكم إنما هي اكبر مزاياه. حقًّا ان الفحص والتمحيص والوزن والاختيار تحتاج جميعاً الى الاجتهاد والمثابرة

واقول ايضاً إن الاجتهاد والمثابرة من ميزات المتفنن العبقري

وما العبقرية على قول ميخائيل انجلو إلا الصبر العميق والعمل الطويل والامل العريض

وكم عقلٍ ناضج وذهن قادر وفكر مستعد كانت تكون أفضل عدة لعبقرية وجيلٍ لولا خمولهُ وضجره ونفوره من الاجتهاد والمثابرة

إن الصورة التي نقف امامها باهتين او التمثال الذي يرفعُ صامتهُ الى مكانة الخالقين او الصوت الذي يُطربنا ويُشجينا ويُنسينا انفسنا الى حين ما هي كلها إلا ثمرة حلوة لشجرة ضنينة مرة يتعهدها صاحبها زرعاً وريًّا وتشذيباً منذ سنين

إن المتفنن العبقري يريد ويعجز. يريد التعبير عن المثل الاعلى الذي تدركهُ نفسهُ بطريق الالهام ويعجز عن التعبير عنهُ بفنهِ لعدم التوازن بين الحلم والعمل ولأن الادوات التي هيأتها الطبيعة والانسان للتعبير عما تشعر بهِ نفس العبقري المتفنن عن طريق الحواس عاجزة مهما كانت درجة اقترابها من الكمال عن تفسير الصورة التي يراها المصور بعين مخيلتهِ والنغمة التي يسمعها الموسيقي بسمعهِ الروحاني

مثل الصورة التي ينقشها الاول والنغمة التي يلحنها الثاني بالنسبة للصورة الخيالية والنغمة الروحانية كمثل انرؤيا الجميلة الرائعة يرويها بعد اليقظة راوٍ ضعيفُ الذاكرة ركيك البيان

والمتفنن العبقري يدرك هذه الحقيقة الى درجة انهُ يبقى دائماً غير قانع بما تنتجهُ قريحتهُ لانهُ وحده يلمس الفرق بين الوحي والحقيقة. ان المتفنن العبقري الصادق على

نفسه المخلص لمثل الاعلى يحتقر ذاته ويزدري ثمرة جهوده . وحبهات ان تلقى متفنناً عبقريًّا قانعاً بما انتج . إن رضى المتفنن عن عمله دليل على بعده عن العبقرية وان قنع متفنن عبقري بما انتج فهذه علامة الاضمحلال الذي يدب الى مواهبه . لذلك ترى الجمهور ومعظمهُ من العامة والمقلدين ينثرون على اقدام المتفنن العبقري ازهار الثناء وهو يقابلهم بابتسامة الاستخفاف والازدراء . وقد يدعو الجاهل هذا الازدراء منهُ غروراً والحقيقة انهُ شعور صادق

اما الجمهور فمخلص في إعجابه لانهُ مؤلف من اواسط الناس ولان كلَّ واحد منهم رأى الصورة التي جادت بها بنان المصور وسمع النغمة التي اخرجها صوت الموسيقي ولكنهُ لم يرَ الصورة التي رآها المصور في احلامه ولم يسمع النغمة التي أسمعها الوحي الاعلى العبقري

واما المتفنن العبقري فمخلص ايضاً في ازدرائه لانهُ وحده دون سواه يشعر بالفرق الشاسع بين الحلم والعمل. يعيب أواسط الناس على العبقري اسرافهُ وإثرتهُ وانصرافهُ عن أسرته ان كانت لهُ اسرة وقصوره عن تكوينها ان أدرك حقيقة نفسه قبل ذلك

ان أواسط الناس هم الذين يحكمون العالم في الظاهر وهم الرأي العام وهم الاغلبية المطلقة . وآراؤهم مهما تكن في حقيقتها فاسدة او مبتذلة فانها تنتهي بالتغلب على سواها من الآراء لان الذين يقرونها ويكسبونها الفوز ويصبغونها بصبغة الحقيقة انما هم أواسط الناس انفسهم . وهكذا يغرس الجهل بزوراً فاسدة فيتعهدها العجز وتنمو بقوة الاستسلام والتصديق واذا تلك البزور الفاسدة قد صارت اشجاراً عالية وارفة اسمها الحقيقة الانسانية ومبادئهُ المدنية والآراء المتفق عليها وما هي في الحقيقة إلا أباطيل لا قيمة لها

إن قولهم بان العبقري مسرف مبذر نفور من أنظمة الحياة العادية صحيح . ولكن ليس الاسراف ولا الاستئثار ولا النفور من أنظمة الحياة العادية عيوباً تقلل من اقدار الرجال . ان من يعيب الاسراف رجل يفضل الاقتصاد ومن يعيب الاثرة آخر لا يدرك معنى الشخصية ومن يقم على النافرين من أنظمة الحياة العادية لم يعلم بعد مفارقتها مع قوانين الطبيعة وهذه كلها امور يدركها العبقري بفطرته أولاً وبعقله ثانياً

قد يكون النفي مصدراً لنعم كثيرة ولكن العبقري يرى في الاسراف نعماً اعظم وقد يكون في الايثار فضلٌ يذكر ولكن العبقري يرى في الاستئثار حكمة عليا وقد يكون في السكون الى انظمة الحياة العادية ما يؤدي الى سلامة النفس والبدن ولكن العبقري يرى نجاة نفسه وصحة بدنه فيما عدا ذلك فالمسئلة مسئلة خلاف في النظر واختلاف في

الحكم بين مجموع اواسط الناس ذوي الآراء الواهية المبتذلة وبين مجموع العبقريين وبعض المواهب

فيصح لنا والحالة هذه للوصول الى حكم صحيح ان ننظر فيما هو اقرب الى الصواب من الفريقين . ان لدى اواسط الناس قوة العدد المادي فهم يعدّون بالوف الملايين في انحاء العالم . وهم المسيطرون بطبيعة حال الاجتماع والمتدنية الحاليتين على المصارف والمطابع والمكاتب والمخابز والمطاعم والملاهي وذلك بفضل العدد المادي

أما العبقريون فقليلون ،قليلون جداً قد يعدون في العالم كله بالعشرات لان الطبيعة ضنينة بهم ومثلهم كمثل الساعات الدقيقة الصنع ومثل غيرهم كغيرها من المصانع فالمصانع يخرج عشرين الف ساعة عادية تباع الواحدة بدريهمات ولكنه يخرج ساعة او ساعتين عبقريتين . الطبيعة تصنع اواسط الناس بالملايين وتمنحنا في كل صباح الف الف نسخة من الانسان العادي ولكنها في كل مائة سنة تجود بنسخة متقنة جميلة الصنع وعندي ان تكوين العبقري يقتضي مجهوداً ان صح ان يقال هذا مجازاً . ولم تمنح الطبيعة العبقرية لقليل من الناس عبثاً . انما هم نارها ونورها ومظهرها الاعلى . انهم على قلتهم يقودون العالم وينظمون شؤونه . انهم على قلتهم يصلحون في شهور او سنين ممدودة ما افسده اواسط الناس في قرون لا تعد فاذا بقيت الامم بين ايدي اواسط الناس امست كالبيوت المهجورة يخيم عليها نسيج العنكبوت ويدفنها غبار النقع وتدب في اركانها الحشرات والهوام الى ان يأتي عبقري موفق فيجعل من البيت المهجور قصراً عامراً آهلاً بالسكان نظيف الحواشي جميل الاركان . وهو لا يستقل في هذا العمل العظيم الا الاواسط الذين كانوا قانعين بالعيش الادنى في ظلال العجز والابتذال

ان اواسط الناس انفسهم لم يصلوا الى الان الى حل نهائي لمسائل المال والاخلاق والاسرة ولم يتفقوا حتى الساعة بصفة قاطعة على تفضيل البخل والايثار والانظمة العادية . والفضل فيما اصابهم من الخبال راجع الى الافكار التي انتجتها العلوم الحديثة

فالاغنية والحالة هذه مشقة . والاقلية وهم العبقريون يعدلون مهما قل عددهم الاواسط ويتفوقون عليهم اضعافاً مضاعفة فواحدهم ببضعة ملايين . خيال اغلبية مؤلفة من ضعاف العقول مشقة على ذاتها واقلية ممتازة لا تنكر ضعفها هي المدبرة للحياة المحركة للدولاب العمل . لا ارى ان التردد في الحكم ولا يمكن لعاقل ان يتردد . امحوا من فكركم كلمة « الصواب في جانب الاغلبية » واكتبوا بغير تردد ولا اضطراب « الحق ما قال العبقري وفعل »

لقد قام بعض اواسط العلماء يدعون ان العبقرية نوع من الجنون . وان العبقري مريض . واقاموا على ذلك ادلة كثيرة يطول شرحها وكان اكثرهم عطفاً على العبقرية من قال منهم ان العبقرية خروج العبقري عن المألوف وهذا دليل على اختلاف التوازن الطبعي والعقلي وقد بلغ التطرف بهؤلاء العلماء انهم لم يتركوا قائداً عظيماً ولا شاعراً جليلاً ولا حكيماً فذاً ولا متفنناً ممتازاً الا ادخلوه في زمرة المرضى والمجانين

وقد الف في ذلك المعنى لومبروزو وتيزيت وماكس نوردو وانهُ من العجيب ان هؤلاء العلماء وامثالهم الذين لم يقفوا حتى الساعة على كنه العقل الانساني ولم يصلوا الى معرفة حقيقة وظيفة المخ ان كانت هي نقل المحسوس الى قوة خفية في الانسان او كانت وظيفته النقل والادراك والتعقل والتصرف. لم يصلوا الى الآن ان كان المخ وسيلة أو غاية. عجيب من هؤلاء العلماء الذين لم يعلموا حتى الآن حقيقة العقل الانساني العادي ويدعون معرفة حقيقة اعظم العقول التي تكاد تكون لقوتها وسموها واتقان صنعتها عقولاً ربانية

انهم يدللون على صحة رأيهم بمسائل تافهة فيذكرون امراضاً وعللاً بدنية اتابت العبقريين وآباءهم من قبلهم. ويصفون احوالاً نفسية اصابت العبقريين في حياتهم ويريدون الوصول بهذا وذاك الى اثبات جنون العبقري . اروني ايها العلماء كائناً من كان تسلسل من اصول سليمة . اروني مخلوقاً بشرياً قضى حياته ولم ينفعل ولم يغضب ولم يحنق ولم يعشق ولم يتألم ولم يشك ولم يبك. أروني انساناً في حياتكم الارضية لم يَرِث عن اجداده عللاً لا تعد ولم تصبهُ من الدنيا مصائب لا تحصى

انكم ايها العلماء صامتون لا تجيبون جواباً إذاً لماذا تجعلون اساس بحثكم عن العبقري أموراً شائعة بينهُ وبين جميع الناس تنسون وراثة الاواسط وتشهرون بوراثة العبقري . تغضون الطرف عن أحوال المجموع وتشنعون على العبقري باحواله

اذا ثبت لكم ان الانسانية ملوثة معتلة الا ترون فضلاً لمن خرج من هذا الوسط الملوث المعتل وأخرج للانسانية ما يصلحها وينفعها ويحسن من شأنها

هل كان هوميروس مجنوناً هل كان كونفوشيوس مختلاً هل كان ارسطوطاليس مخبولاً هل كان نابليون مصاباً بهوس ان كان هؤلاء وامثالهم في عداد المرضى والمجانين فنعم الجنون والمرض

اللهم ارزقنا بالف مجنون على شاكلة هؤلاء المجانين الذين ادهشوا العقلاء بثمرة عقولهم وحكمتهم . وقادوهم في طريق السلم والحرب محمد لطفي جمعه المحامي

ماري ملكة رومانيا بملابسها الوطنية
وهي من الاديبات الشهيرات
مقتطف ابريل ١٩٢٨
امام الصفحة ٤٠٩